ما حفّزني على أن أكون معلمة

رحمة بني عودة

كالفراشة كنتُ لدى دخولي الصف الأول الابتدائي، لم أنم تلك الليلة لفرحي باللقاء الأول لمعلمتي، لم أكن أعلم أنه ينتظرني الكثير من الأحداث طوال مروري في المرحلة الابتدائية والمرحلة الوسطى والثانوية. إنها أحداث ما زالت في ذاكرتي، أحببتُها مع أن البعض منها مؤلم، لكنّ كل حدث فيها علّمني كيف تسير الأمور في هذه الدنيا، فكان لقائي الأول بمعلمتي، اسمها حليمة، عرّفتنا على حالها، وفي المقابل سألتني عن اسمي، فأجبتها، فمثل هذا السؤال جلب السعادة إليّ؛ لأنه أشعرني بأن المعلمة مهتمة لأمري.

مرت الأيام، وأصبحتُ أتعلم اللغة العربية والحساب والعلوم. كان يفرحنا تعزيز المعلمة عندما نكتب ونحسب جيداً، إذ كانت تعطينا السكاكر والحلوى، وهذا كان يفرح زميلاتي، ما أعطانا دافعاً للتفكير بأن نصبح في المستقبل معلمات.

وعاماً بعد عام، أصبحنا نميز بعض المعلمات عن غيرهن لأسباب عدة، أولاً بسبب طريقة المعاملة، أو الأسلوب المتناسق في سرد المعلومة، وأحياناً طريقة اللباس، فكنا نفرح بلباس بعض المعلمات ومظهرهن وأناقتهن، ما يجذب الطالبات إليهن، ولكنّ أكثر أسلوب كان يدب الرعب في قلوبنا هو المعاملة القاسية من بعض المعلمات بحجة ضبط الطالبات، حتى أننا أطلقنا على معلمة اسم الشرطي، وعندما كنا ننبه بعض الطالبات من هذه المعلمة القاسية، خصوصاً في المناوبة، كنا نبعث إشارات للطالبات في الصفوف المقابلة بأن الشرطة قادمة. وأذكر بعض المواقف التي أتذكرها عن بعض المعلمات.

فقد كانت معلمة اللغة العربية للصف الرابع تعززني بالكلمات اللطيفة، وأحلى كلمة من بين الكلمات أنني رائعة. أما في الصف السادس، فكنت أُحب الحساب، إذ كان للمعلمة (عدالة) أسلوب مميز، فكانت تُغيّر جلستنا في الصف بعيداً عن الروتين، حيث

المعلمة رحمة بني عودة في نشاط مع الطلبة داخل صفها المدرسي.

كانت تضعنا في مجموعات، وتغرس فينا حب العطاء، كنا نحل مسألة الحساب كل مجموعة مع بعض، وفي الوقت نفسه تغرز التنافس بين المجموعات، كنت أُحب أسلوبها وحصتها، ما جعلني أُفكر بأن أصبح يوماً ما معلمة حساب.

أما بالنسبة لمعلمة الفن، فلا أنسى فعلتها، فقد وضعتْ علامةً مزيفةً لإحدى طالبات الصف، ما أثار غضبي، وذهبتُ إليها من دون تفكير، وأمام زميلاتها من المعلمات قلت لها: أنت ظالمة، وضعتِ لي علامةً أقل، مع أنني أنجزتُ قطعة التطريز بنفسي، لكنّ هذه الطالبة أحضرتْها جاهزة، ومن دون أن أتوقع تكلَّمَتْ معي بهدوء، وقالت لي: أحضري قطعة التطريز مرةً ثانية لأضع لك علامة أُخرى، ولكنني لم أتنازل، وقلت لها: لماذا أُحضرها وأنت

شاهدتِها؟ وهل من الممكن أن تضعي علامةً مزيفةً لي ولزميلتي؟ وفاض صبرها عندما نظرتْ زميلاتها إليها نظرة إحراج.

أما مديرتي، فكانت شخصيتها في جسدها، حيث كانت سمينةً فوق التصور، وكانت لها عينان كبيرتان، كنا نخاف منها لمجرد أن تنظر إلينا، خصوصاً في المرحلة الصغرى، لكن في المرحلة الإعدادية كنت أُحبها، سيّما عندما نذهب إلى مكتبها وأمامها صحن الحمص والفول، وتجبرنا على الأكل معها، ومن هنا أعطتنا نوعاً من المجاملة التي كانت تُخرجها بعفويتها، وتنادينا: «يا بناتي». كنت أحب هذه الكلمة؛ لأنها تشعرنا بأننا في بيتنا ولسنا في مدرسة.

في الصف السابع، كنت أُحب معلمة اللغة العربية. ولكن، يوماً ما عاقبتْ جميع الصف بسبب عدم دراسته درساً مشروحاً، وكان عقابها أن ننسخ الدرس، وهذا أشعرني بالظلم؛ لأنه عقاب جماعي، فقررت أن لا أنسخه باعتباره ممارسة ظالمة، وهناك مجموعة كانت تفكر بما فكرت فيه، فعاقبتنا بالضرب، وعند وصولها إليّ امتنعَتْ عن ضربي، فكان العقاب الأكبر، حيث كان الإهمال من قِبلها، فشعرتُ بالإهانة، فتكلمتُ معها، فقالت لي: سوف أضربك مثل زميلاتك، فقبلت. وقد عرّفني هذا الموقف بالظلم والعدالة في الوقت نفسه.

في الصف التاسع، أحببتُ حصة العلوم، حيث كانت تُعطَى في المختبر، وفي حصة ما طلبَتْ منا المعلمة أرنباً لنُشرِّحه، وأحضرناه. ومن هذا الدرس تعلّمنا كيف تتم عمليَّتَي التخدير والجراحة، وتعرّفنا بالشيء العملي على القلب والكبد والأمعاء وكل الأعضاء الداخلية، وحتى الآن لا أنسى هذا الدرس.

أما الحصة التي لن أكرهها مطلقاً، فهي حصة الرياضة، حيث كانت المعلمة (نجاة) من أول العام إلى آخره تُدربنا على اليوم المفتوح الذي كان مميزاً بفقراته، إذ كان يُشعرني بأنه يوم عيد، إضافة إلى النشاطات الرياضية، فكُنا نذهب إلى البلدان المجاورة لنباري في كرة الطائرة. أما اليوم الذي لا يُنسى، فهو ذهابي أنا وأُختي الصغرى وزميلاتي إلى مدينة جنين، حيث هناك كان يوم مفتوح لجميع مدارس المحافظة، إذ كانت كل مدرسة تقدم فقرة، وكانت أفضل فقرة تأخذ شهادة تقدير، وهو ما حفزني في دراستي المستقبلية بأن أُصبح معلمة. ولكن، كنا أنا وزميلاتي نتفق على شيء واحد، ألا وهو الامتحانات التي تجلب الإحباط واليأس

المعلمة رحمة بني عودة في نشاط مع الطلبة داخل صفها المدرسي.

والإرهاق والتوتر، سواء من المدرسة أو من الأهل، كنت أكره الحفظ، أو بالأخص البصم، وأسوأ امتحان قدمته هو الفيزياء، فكانت المعلمة تتباهى بوضع أسئلة صعبة، وتشعر بالفرح عندما نحصل على علامات قليلة، لماذا؟ كنت لا أعرف، وأدركتُ فيما بعد أنها تريد الشهرة بين الطالبات بأن هذه المعلمة قوية في المادة، الله لا يسامحها؛ لأنها كرّهتنا في المادة، فإلى الآن لا أُحب مادة الفيزياء، حتى لو فهمتُها وحصلتُ على علامة عالية.

أكملت المرحلة الثانوية مجبرة، لأن علامة مستقبلية هي التي تحدد المصير، وأكملتُها وذهبتُ إلى الجامعة، وتخصصتُ في الرياضيات التي بدورها عززت تفكيري الذهني وقدراتي العقلية، بما فيها من الفائدة العظيمة في العلوم الأخرى، والحمد لله تخرجتُ وحصلتُ على الوظيفة، وتعيَّنتُ في مدرسة حكومية. وأول ما بلغني خبر التعيين تملَّكَتْني أحاسيس جمّة، أولها الفرحة؛ لأنني سوف أتلقَّى راتباً يجلب لي الاستقرار، وثانيها القوة؛ لأنها تجلب الأمان، وثالثها الطمأنينة التي تجلب المسؤولية عن نفسي، وغيرها الكثير. وفي أول دوام لي توجهتُ إلى المدرسة، فتفاجأتُ بأنها مختلطة، فأخذتُ نفَساً عميقاً، ولدى مروري في الساحة كانت عيون الطلبة عليّ وهم يتهامسون: هذه معلمة جديدة، اليوم أحلى مقالب، إلى أن وصلتُ إلى غرفة الإدارة، فإذا بمعلم يجلس على كرسيّ المدير، لا أعلم أهُوَ المدير أم لا، طرحتُ السلام، وقلت له: أنا تعيَّنتُ هنا، فقام وقال لي: ما هذا؟ أنتِ جميلة، فلاطفتُه وقلتُ له: شكراً، وقال لي:

لحظة، لا ترتدي هذا اللباس، يجب أن تلبسي جلباباً، فقلت له بلهجة قاسية وحادة: ليس من شأنك. وبعد وقت، قال لي: أنا لستُ المدير، أنا رئيس المجلس القروي يا ابنتي، أنا أُمازحك، فضحك وضحكتُ، وهذا أول مقلبٍ في هذه المدرسة.

وبعدها حضر المدير، وتعارفنا، وأعطاني لائحةً من القوانين التي في معظمها صارمة، وعن كيفية التعامل مع الطلبة، وبشكل خاص الذكور منهم. ذهب معي إلى أحد الصفوف، دخلتُ إلى الصف، فشعرت بنوعٍ من الخوف ذهبَ سريعاً، عرَّفني المدير على الطلبة، وذهب، وهنا الصعوبة بدأت، فإذا بأحد الطلاب يسألني إن كنتُ مخطوبةً أم لا، من هنا أدركتُ وفكرتُ سريعاً بالتعامل، أجبته سريعاً: يا بُنيّ، كم حصلتَ على علامة في مادة الرياضيات؟ هل أنتَ تحب هذه المادة أم لا؟ ومن هنا أدرك الطلاب بهذا الأسلوب أن لا يسألوني أسئلةً شخصية.

الصعوبة الثانية هي أن الدراسة مختلفة عن التدريس. فالتدريس لا يحتاج فقط معلومة، ولكن فيه تقريباً وتنظيماً وتنويعاً، حيث التقريب يجب أن تتعلم فيه كيف يكون الطالب قريباً من معلمه؛ يسأل ويجاوب من دون خوف، مع الاحتفاظ بالمقامات، ويتم ذلك بالتعزيز، سواء للطالب الذكي أو المتوسط أو الضعيف، وأكثر أسلوب بيني وبين الطالبات هو أسلوب المراسلة عبر الإنترنت، حيث يعطي مجالاً للطالب بأن يفصح لمعلمه عمّا يجول في خاطره من دون خوف، ويسأل عمّا لا يفهمه في الغرفة الصفية، كون بعض الطلبة يشعرون بالحرج من زملائهم بالسؤال أكثر من مرة عن المعلومة.

أما التنظيم، فيكون دور المعلم فيه أكثر من الطالب، حيث يتم سرد المعلومة بربطها بالحياة العملية، وخير مثال على ذلك: عند إعطاء درس المساحات والحجوم، نعطي الطالب بالاستنتاج المعلومة، وهي معنى المساحة والحجم والفرق بينهما، ثم نستخدم الغرفة الصفية لكيفية حساب المساحة، ثم نخرج بالطالب إلى ساحة المدرسة، إلى أن يتوصل إلى حساب أي مساحة مُعطاة، وكذلك الحجم، نتعرف على مفهوم الحجم بطرح سؤال عن حجم كرسي الصف، إلى أن يتوصل الطالب بالاستنتاج ويرسخ مفهوم الحجم، ومن ثم نتعلم كيفية حسابه باستخدام المجسمات، وهذه بعض الأمثلة التي نطرحها لربط مادة الرياضيات بالحياة العملية. أما التنويع، فيكون بطرح أساليب متنوعة لتدريس مادة الرياضيات، ومن هذه الأساليب عرض بعض الدروس وشرحها على برنامج «البَور بوينت»، أو أسلوب شرح الدرس في الساحة المدرسية، وبخاصة مثل درس زاوية الارتفاع والانخفاض، وتطبيقه على السارية، وأسلوب المجموعات، وبشكل خاص للمرحة الإعدادية مثل درس صنع المجسمات، حيث تتعاون الطالبات بعضهن مع بعض في صنع المجسمات، ما يغرز المحبة والتعاون والتنافس بين الطالبات.

ولكنّ هناك بعض المواقف التي أزعجتني في فترة تدريسي، وهي كون المنهاج مكثفاً، فبالنسبة لمادة الرياضيات للصف الثامن نحتاج إلى 7 حصص في الأسبوع لإعطاء المادة حقها، في حين أنها تُعطَى في خمس حصص في الأسبوع. أما أكثر شيء أشعرني بالألم، فهو أنني سألتُ طالبةً متفوقة عندي، اسمها أماني، إن كانت تحب المدرسة، فكانت إجابتها سريعة بأنها لا تحبها، وتفاجأتُ من ذلك، وسألتها: لماذا؟ فقالت لي: أولاً كل يوم هناك امتحان. ثانياً: ممنوع لبس الملوّن. ثالثاً: الغرفة الصفية تشعرني بالسجن. قلتُ لها: ماذا يفرحك؟ قالت: إضراب المعلمين. ما هذه المأساة التي حلت بنا؟ طلبتُ استغاثةً من ضميري: ما العمل؟ لماذا حل بطلابنا هذا التفكير؟ فقال لي: الامتحانات التي تُجرَى للصف الرابع أعطت صعقةً سلبيةً للطالب، الامتحانات الوزارية التي تُجرَى لصفوف الخامس والسابع والثامن والتاسع دبت الرهبة والخوف والرعب في نفوس الطلبة، النشاطات الترفيهية التي تقتصر على جزء من الطلبة. فقلت له: ما العمل؟ فقال لي: العمل، ببساطة، تجسيد الحرية والقناعة والرغبة وزرع الحب؟ فاستوقفتني هذه العبارة في موقف ابني في الروضة، فهو لا يحب الروضة، فسألته: لماذا؟ فقال لي: معلمتي تصرخ علينا، لا تحب أن نلعب بالألعاب، وتقول لنا: «جننتوني». فمن هنا أرجو أن تكون هناك رقابة على الروضات، وبشكل خاص في القرى، لأن فكرة العنف احتضنتها بعض تلك الروضات ونقلتها إلى المدرسة.

مدرسة بنات تياسير الثانوية

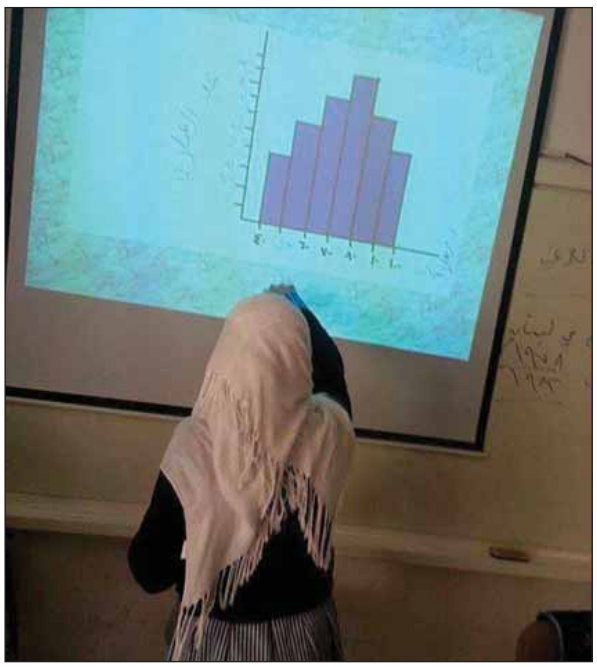

جانب من مشاركة إحدى الطالبات في نشاط صفي للمعلمة رحمة بني عودة.